المعيارية الأخلاقية في فلسفة البحث عند محمود شاكر

Normative ethics in the philosophy of research according to Mahmoud Shaker

غماري محمد الأمين
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان،
Abdeli_gh@yahoo.fr
خليفي الشيخ
جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان،
khlefichikh@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/23 تاريخ القبول: 2023/10/19

الملخص: المنهجية العلمية الصحيحة في البحث العلمي هي السبيل الوحيد للباحث للوصول إلى نتائج صحيحة موثوق فيها، وأخلاق الباحث هي أحد مكوّنات شخصيته، ولها الأثر البالغ على الباحث وعلى حسن تطبيقه المنهج العلمي، فما هو تأثير مصادر الأخلاق على الباحث وحسن تطبيقه للمنهج العلميّ، و في هذا البحث سنحاول أن نبيّن فيه رأي المفكّر الإسلامي المعاصر الأستاذ محمود شاكر، إذ بعد استقراء كتابات الشيخ وتحليلها تحليلاً علمياً، ومقارنتها بالمناهج الأخرى والنظريات المخالفة له، اتّضح أنَّ الأستاذ يرى أنَّ من مؤهّلات الباحث، هو تمكّن مصادر الأخلاق من شخصيته، ورسوخها فيه، كما أنَّ الإلمام باللغة والثقافة وشدّة التأثّر بالدّين هي الّتي تجعله مؤهَّلاً لدراسة مجتمعه دراسةً نزيهة، وأيضاً تؤهّله إلى تطبيق المنهج العلمي تطبيقاً صحيحاً، ومن توفَّرت فيه هذه الشروط كان الأحقَّ بنقل الصورة صحيحة غير مشوّهة.

الكلمات المفتاحية: فلسفة البحث، محمود شاكر، المعيارية الأخلاقية، النقد العلم.

Summary :
The correct scientific methodology in scientific research is the only way for the researcher to achieve valid and reliable results, and the ethics of the researcher is one of the components of his personality, and it has a great impact on the researcher and its good application of In research, we will try to show the opinion of the contemporary Islamic thinker, Professor Mahmoud Shaker, after extrapolating the writings of Professor Mahmoud Shaker and his methodology and analyzing them scientifically, and comparing them with other other approaches and theories that contradict him, it became clear that the professor sees that one of the qualifications of the researcher is that the sources of morality can be his character,It is also the knowledge of language and culture and the intensity of religious influence which makes him qualified to study his society in impartial study, and also qualifies him to apply the scientific method in correct application, and whoever fulfills these conditions is more entitled to transfer the correct and undistorted image.

Keywords: Philosophy of research, Mahmoud Shaker, religion, cognitive culture.

المؤلف المرسل: غماري محمد الأمين، الإيميل: abdeli_gh@yahoo.fr

أولا. مقدمة:

البحث العلمي المعاصر سلسلة من القواعد المعرفية والعلمية الصارمة، التي يجب الالتزام بها والتقييد بشروطها وضوابطها، حيث يعتبر الإخلال بها أو بواحد منها إخلالاً بالعلم وموضوعاته، ونتائجه، وهو ما يسمى عند علماء المنهجية بفلسفة البحث، ولعلَّ من تلك الضوابط الحاكمة في هذا النسق العلمي المعيارية الأخلاقية، الّتي لا تقلُّ أهميّةً وخطورةً عن بقية قواعد منهج البحث العلمي، ومن هذا المنطلق نجد أنَّ علماء المنهجية كثيراً ما ينبّهون على هذا الضابط، ومن جملتهم الباحث المحقّق الأستاذ محمود شاكر الّذي استوعب القضية في أبحاثه تنظيراً وتطبيقاً، وعلى ضوء ما تقدّم فهدف هذه الورقة البحثية هو الوقوف على الإجابة على التساؤلات التالية : ما المقصود بالمعيارية الأخلاقية عند محمود شاكر في البحث العلمي ؟ وما هي ضوابطها ؟ وما هي مؤثراتها على البحث وتأثيراتها على نتائجه ؟

ثانيا. فلسفة البحث العلمي عند محمود شاكر[1] :

لقد اختلف العلماء في صياغة تعريف مركّز للبحث العلمي في حدّه وتصوّره وإن كان هو واحدٌ في معناه ومضمونه، سنعرض لبعض هذه التعاريف والحدود لبعض العلماء ونختمها برؤية الأستاذ محمود شاكر.

1. مفهوم البحث العلمي :

عرفه عبد الرحمن بدوي في كتابه مناهج البحث العلمي بأنّه :" البرنامج الّذي يحدّد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة أو الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم."[2] وقال في سياق آخر أنّه ترجمة لكلمة methode في قوله :"هذا اللّفظ ترجمة للكلمة méthode الفرنسية ونظائرها في اللّغات الأوروبية

الأخرى، وكلّها تعود إلى الكلمة اليونانية métodos، وهي كلمة نرى أفلاطون يستعملها بمعنى البحث أو النظرة أو المعرفة، كما نجدها عند أرسطو أحياناً كثيرةً بمعنى "بحث" والمعنى الإشتقاقي الأصلي لها يدلُّ على الطريق أو المنهج المؤدّي إلى الغرض المطلوب خلال المصاعب والعقبات."[3]

في حين ذهب الدكتور فريد الأنصاري في تعريفه للمنهجية العلمية بقوله :" إنَّ المنهج بمعناه العام هو منطق كلّي يحكم العمل العلميّ، ويوجّهه منذ أن يكون فكرة، حتّى يصير بناءً قائماً، اعتماداً على أصول وقواعد تشكّل في مجملها نسقاً متكاملاً هو المسمّى بأصول البحث العلميّ."[4]

والّذي يلاحظ بناء على ما تقدّم بيانه من تلك التعريفات أنّها متقاربة في قيودها، إلاَّ أنَّ تعريف الأنصاري هو أكثر دقّة ووضوحا.

2. منهج البحث العلميّ عند شاكر:

يقسّم الأستاذ محمود شاكر المنهج إلى ثلاثة أقسام، الأوّل اصطلح عليه بما قبل المنهج، وهو ما يقوم على أساسه المنهج الّذي ينتج المذاهب أو المناهج، وشاكر يولي أهمّية كبيرةً لهذه المرحلة ما قبل المنهج، فإذا صحّ واستقام استقام المنهج واستقامت المذاهب أو النتائج العلمية عموماً، وكأنَّ شاكر يحصر المنهج تقريباً في مرحلة ما قبل المنهج، ثمّ يقسّمها إلى قسمين الأوّل جمع المادّة العلميّة والثانية تحليلها، وأمّا القسم الثالث فهو المرحلة الّتي تأتي بعد مرحلة ما قبل المنهج، وهي مرحلة التطبيق، وقد أبرز هذه الرؤية بقوله :"ولفظ المنهج يحتاج منّي هنا إلى بعض الإبانة وإن كنت لا أريد به ما اصطَلح عليه المتكلّمون في مثل هذا الشأن، بل أريد به "ما قبل المنهج" أي الأساس الذي

لا يقوم المنهج إلاَّ عليه، فهذا الذي سمّيته هنا "منهجاً" ينقسم إلى شطرين : شطر في تناول المادّة، وشطر في معالجة التطبيق."[5]

وأمَّا القسم الثالث فهو قسم التطبيق و هو المرحلة الّتي يقوم فيها الدارس بتطبيق ما استنتجه من جمع المادّة وتحليلها على باقي المجالات والعلوم والفنون، وهو ميدان واسعٌ سعة العلم ومجالاته، منه تنتج أصول كلّ مفكّر وعالم يؤمن بها ويتبنّاها ويبني عليها أفكاره ومذهبه، حيث قال :" أنَّ شطر التطبيق هو الميدان الفسيح الّذي تصطرع فيه العقول، وتتناصى الحُجَجُ "[6]

من هذه الرؤية الفلسفية يتّضح أنّ شاكر قام بتقسيم المنهج إلى ثلاثة مراحل الأولى هي ما قبل المنهج والثانية ما بعد المنهج، وشرح ذلك أنَّ ما قبل المنهج ينقسم إلى قسمين الأوّل: في تناول المادّة والثاني في معالجة المادّة، وأمّا ما بعد المنهج فهي مرحلة التطبيق.

يمكن أن نجمع العناصر الّتي حدّ بها شاكر مصطلح المنهج والمنهجية، فيمكن صياغة حدّ المنهجية العلمية في دراسة العلوم الإنسانية عند الأستاذ محمود شاكر بقولنا : المنهجية العلمية هي عملية جمع وتمحيص وتصنيف للمعلومات، ونفي زائفها وكلّ ما يشوبها من تحريف وتزوير وتصحيف، ثمّ ترتيبها ترتيباً يساعد على وضع كلّ أجزاء الصورة في مكانها للوصول إلى التصوّر الصحيح الغير محرّف والغير مشوّه، ثمّ تطبيق هذا المنهج على سائر العلوم والبحوث من غير استثناء.

ثالثا : النقد الفلسفي للمناهج السائدة عند شاكر:

لقد صرَّح الأستاذ محمود شاكر في كثير من كتاباته، أنّه لا يعترف بالمناهج السائدة اليوم، والّتي يتّبعها الباحثون والدارسون والمؤلّفون، وخاصّةً في العلوم الإنسانية، كالآداب والتاريخ والفكر، ويؤكّد دوماً أنَّ الحياة الأدبية في

زمانه فاسدة، وغير صالحة للبحث أو تلقّي العلوم، والسبب هو الانحراف عن المنهج الصحيح الّذي عنيَ علماء الأمّة بالمحافظة عليه وإثرائه عبر العصور والدهور، لأسباب سوف نبيّنها في طيّات هذا البحث إن شاء الله، قال محمود شاكر :"كان منهجي ، كما نشأ واستتبَّ في نفسي، كان منهجاً يحملُ بطبيعة نشأته رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجلج، لأكثر المناهج الأدبية الّتي كانت فاشيةً وغالبةً وصارت لها السيادة على ساحة الأدب الخالص وغير الأدب الخالص إلى يومنا هذا ... فاعلم قبل كلّ شيء أنَّ تسميتها "مناهج" تجاوز شديد البعد عن الحقيقة، وفسادٌ غليظ وخلطٌ، إذا كنت تريد أن تكون على ثقة من معنى هذه الألفاظ الّتي تجري الآن بيننا ولكن قد كان ما كان."[7]، وقد ظهر جليّا رفضه للمناهج السائدة في الأوساط العلمية البحثية، ما تلمحه في سيرته زمن دراسته في الجامعة وصدامه المشهور مع أُستاذه االدكتور طه حسين، فكان صداماً في معنى المنهج العلميّ الصحيح، وكان الدافع الأوّل في تطبيق منهجه واضح المعالم في كتابه "المتنبّي" وعلم يومها أنَّ من واجب العلماء بيان المعنى الصحيح للمنهج العلميّ الصحيح، مع توضيح شروط المنهج وشروط المطبّق له، وعدم ترك الإبهام والضبابية والعمل على بيان الوضوح المنهجي وعلى هذا المصطلح وشروطه لأنّه يسيء كثيراً لكلّ الدراسات، فقال مبيّناً :"وعادت بي الذكرى إلى ماض بعيد، إذ كنت طالباً في كلّية الآداب بجامعة القاهرة، منذ نحو من تسع وثلاثين سنة، يوم وقَعَ الصراع بيني وبين أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين، على مفهوم كلمة "المنهج" وعلى الأدوات الّتي يمارس بها هذا المنهج، ثُمَّ ظلَّ هذا الصراع قائماً على أشُدّه في نفسي منذ فارقت الجامعة حتّى أخرجتُ كتابي عن "المتنبّي" في يناير سنة 1936م، ثمّ أخرج أستاذنا بعد ذلك بعام أو

أكثر، كتابه "مع المتنبّي"، فكتبت يومئذ مقالات طوالاً، مع الأسف في نقد كتاب الدكتور طه حسين، زادني معالجة نقده يقيناً على يقين، في أنَّ الغموض إذا أحاط بلفظ "المنهج" أدَّى إلى خلط كثير في فهم الآداب وفي تفسيرها وفي شرحها، ثمّ في تصوير أحداث العصر وأفكاره ورجالاته وأحواله، بوجه عام ... واليوم وبعد هذا الدهر المتطاول، أجد هذا اللّفظ قد إزداد إبهاماً وغموضاً، وازداد تطبيق ما يقتضيه تخليطاً."[8]

1. الرؤية المعرفية البديلة عند شاكر:

أساس نقد الأستاذ محمود شاكر للمناهج السائدة اليوم كونها قائمة على أساس غير الأساس المتعلّق بهوية الذات العربية الإسلامية، فإنّها قائمةٌ على قواعد أسّسها الآخر، تحديداً المستشرقون منهم، فبعد أن قام المستشرقون بدراسة التراث العربي الإسلاميّ، وانطلاقاً من قواعد بحث قائمة على خلفياتهم الحضارية والدينية ومقاصدهم الظاهرة والباطنة، فأخرجوا هذا التراث تبعاً لقواعدهم الّتي استندوا عليها، فالأستاذ محمود شاكر يرى بوجوب دراسة التراث العربيّ الإسلاميّ، على أسس وقواعد الّتي نتج منها، وهي قواعد عربية إسلامية الّتي أسّسها الأوّلون، وأنتجوا هذا الكم الهائل من التراث، فدراسته على غير الأساس والقواعد الّتي قام عليها ينتج لنا تراثاً مشوّهاً ونتائج مغلوطة يتهيّأ للدارس أنّه اكتشف أخطاء فيه وهو عكس ذلك تماماً.فقال موجزاً مبيّنا لمنهجه :"وأنا بالطبع لا أكتب بلغة أصحاب "المنهج العلميّ" و "علم التحقيق" **ولكنّي أكتب بلسان أمّتي الّتي أنا منها، متّبعاً لعلمائها مسترشداً بهديهم.**"[9]

وقال أيضاً في منهج تحقيق المخطوطات أنّه منهج مستورد من عند المستشرقين وأنّه يرفضه كلَّ الرفض قال الأستاذ "محمود شاكر" :"فهذا "المنهج العلمي" أو

"علـم التحقيـق" الّـذي يختـال المختـال في طيلسـانه، لـيس إلاَّ دروسـاً أنشـأها جماعة من أغتام الأعاجم في زماننا، فتلقّنوها عنهم حفظاً عن ظهر قلب، فإذا جاء أحدهم كتابٌ أو وقع في يده، نظر فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبّقةً في هـوامش الكتـاب، ذاك الكتـاب "المحقـق"، فـإذا لـم يـرَ أثـراً ظـاهراً في هـوامش الكتاب يطابق المحفوظ من القواعـد، فهـو كتـاب "غير محقّق"، "كتـاب رديء جـدّاً" يقولهـا قـائلهم رافعـاً هامتـه ناصـباً قامتـه، مصـعّراً خـدّهُ، زامّـاً بشـفتيه وأنفـه، كهيئة المتقـزّز المتقـذّر، بهـؤلاء وأشـباههم، **تفشّى وباء "تحقيق الكتب" على هذه القواعد المحفوظة**، وشـوّه وجهَ الكتـاب العربيّ هـذا السَّـيل الجـارف بما يحملُ من غُثاء وجفاء وقذر، هذا عجيب ؟؟."[10]

ويقـول منكـراً على أخـذها بالتسـليم منكـرين على مـن خالفهـا :"بيـد أن أعجـب العَجَب عندي، أن يأتي هذا الآتي فلا يقتصر على أن يحاكمني إلى محفوظه من قواعـد "المنهج العلميّ" و "علـم التحقيـق" بل يريـدني أيضـاً أن أتَّبـع هـذا "المنهج" قسـراً وإلاَّ فـإنَّ إسـاءتي بخلاف هذا "المنهج" إسـاءةٌ توجب العقوبة، لا بل توجب الغمـز واللّمـز والهمـز، وترميز الحواجب والعيـون، لا تقـذراً فحسـب بل اسـتهزاءً واستهانةً، "[11]

وهـذا البيـان المنهجي لـيس مقصـوراً على علـم تحقيـق الكتـب بل هـو شـامل لكلّ العلـوم كتراجم الأعـلام، أو دراسـة الشـعر الجـاهلي أو الإسـلاميّ، والتـاريخ، كلّـه يدعوا الأستاذ "محمود شاكر" في الاحتكام إلى القواعد والأسس الّتي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية، بتعاقب العصور والدهور، فأنتجت لنا هذا التراث الكبير، على أساس علمي متين، فبدل الاحتكام إلى غيره من مناهج الأمم الأخرى يجب البحث فيه ومعرفته وإيضاحه، وهذا ما سعى إليه الأستاذ محمود شاكر.

يمكن ذكر خلاصة في سبب الخلاف بين منهج "شاكر" ومن خالفه، فقد ذكر "شاكر" أنّ المنهج العلمي الصحيح القائم على مقوّمات الأمّة العربية الإسلامية، نتج عن تعاقب قرون طويلة من البحث والدّرس، وتراكم معرفي هائل، ممّا زاد في تتابعه واستمراره، وكان المرجوُّ استمراره على تلك الوتيرة إلى العصر الحديث وهذا ما لم يكن، والأسباب التي أدّت إلى انقطاع هذه الاستمرارية في تطبيق منهج أنتجته أمّة عظيمة في زمن طويل جداً أسفر عن علوم وبحوث وكتابات ملأت المكتبات ولا زالت تملؤها بالرّغم من الحرق والإتلاف والإهمال عبر أحداث التاريخ الطويل للأمّة العربيّة الإسلاميّة.

وقد عبّر "شاكر" عن هذا الانقطاع بقوله :"وكان المرجوُّ والمعقول أن يستمرّ نموّها واكتمالها وازدهارها في حياتنا الأدبية العربية الحديثة راهناً، ثابتاً إلى اليوم، لولا...ولكن صرنا ، واحسرتاه إلى أن نقول مع العضرْجيّ الشاعر : كان شيئاً كان ثمّ انقضى."[12]

والسبب الذّي جعل هذا المنهج، يندثر ويخفى عن أجيال الأمّة دهوراً، السبب هو أنّ الأمّة حين تعرّضت للاستعمار، تعرّضت أيضاً إلى حرفها عن الجادّة، فحَرَفها الاستعمار عن مسارها الثقافي الصحيح، إلى مسار تغريب الذات والعمل على ترسيخ سيادة القيم المعرفية الغربية، عن طريق مؤسّسات الاستعمار من تبشير و استشراق، وتغيير النظام التعليمي بترسيخ سيادة المنظومة الغربية، من عربيّ إسلاميّ إلى الثقافة الغربية، وإبعاد أبناء هذه الأمّة عن لسانها ودينها قدر المستطاع، لأنّهما الموحّد لأمّة الإسلام كلّها عربيّها وأعجميها فضاع اللّسان العربي أو كاد، وطغت الثقافة الغربية على العربية الإسلامية، فنسيت الأجيال تراثها أو تناسته، وقرأته على غير المنهج الذي نشأت

عليه هذه العلوم وهذا التراث، فأخطأوا القراءة والفهم، فضلوا، بهذا وبغيره ضاع المنهج العربي الإسلاميّ في معالجة القضايا العلمية، وحلّ محلّه المنهج الغربي الّذي لا صلة له بتراث هذه الأمّة، ولقد أوضح "شاكر" هذه المسألة في كثير من مقالاته هذا اختصار مني لها، وتوضيح للفكرة .

وممّا استفاض في بيانه في معرض ما ذكرنا قوله :"فالحياة الأدبية الفاسدة الّتي سنَّ للناس سُننهاَ شيوخنا الأدباء الكبار، والّتي نعيش فيها إلى هذا اليوم، وآفات أُخرى كانوا يتعايشون بها، وبَثُّوها في تلاميذهم وأشياعهم، كلُّ ذلك لم يكن يتيح لأحد إلاَّ من عصم الله أن يجد من وقته ساعات للتأمّل والأناة والصَّبْر، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذي وجده أمامه مطبَّقاً في كتاب كامل...فبقي منهجي غير بيّن بل صار منهجاً مغموراً تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة على هذه الحياة الأدبية الفاسدة."[13]

نخلص من خلال ما تمّ بيانه أنَّ شاكر يحاول إظهار وبيان منهج قد تعرّض بعوامل كثيرة إلى النسيان والتشويه والإقصاء من الساحة المعرفية، ويحاول بعثه من جديد، كما يحاول ردأ الصدع التاريخي الذي أثّر على استمرارية المنهج العلمي العربي الّذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية.

2. تطبيقات المنهج العلمي عند شاكر:

لقد ظهرت تطبيقات الأستاذ محمود شاكر لمنهجه الّذي هو عبارة عن إحياء وبعث من جديد المنهج العربي الإسلاميّ في دراسة التاريخ والآداب وغيرها من العلوم، ظهرت تطبيقاته في عدّت كتابات وأبحاث منها في تراجم الأعلام ولعلّ أبرزها كتاب المتنبي، وفي تحقيق المخطوطات ظهر جليّاً في تحقيقه لكتاب "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلاّم الجمحي، وفي دراسة الشعر العربي

القديم في كتابه "نمط صعب ونمط مخيف"، وبيّن انحراف التغريبين عن المنهج الصحيح المذكور، واتّباعهم المنهج الّذي ورثوه عن المستشرقين القائم على أساس غير أساس الحضارة العربية الإسلامية كما ذكرنا، ظهر جليّاً في كتابه "أباطيل وأسمار"، فيمكن الآن أن نذكر عيّنات طفيفة لأجل الإشارة والتوضيح والتمثيل لا غير لأنَّ المقام ليس مقام إسهاب وإطناب.

أولاً: ترجمة الأعلام وكتابة التاريخ :

لقد تجلّت تطبيقات الأستاذ "محمود شاكر" لمنهجه في كلّ أبحاثه بلا استثناء، ظهر أوّلاً :في أوّل بحوثه والّذي نشرته مجلّة المقتطف، تحت عنوان المتنبّي، بمناسبة حلول المائة سنة على وفاة المتنبّي، فخرجت للوجود ترجمةٌ لأبي الطيّب المتنبّي، تخالف كلّ التراجم تقريباً، بمنهج مختلف، الّذي أنتج تصوّراً جديداً لحياة المتنبّي، خلاف لما عهدناه عند سائر من ترجم له، وأضاف حقائق أخرى وافتراضات أخرى، لم يذكرها أحد من قبله، منها أنَّ المتنبّي له صلةٌ وثيقةٌ بالعلويين، وأنَّه ينتسب إليهم، وأنّهم ظلموه، وأنّه كان يحبُّ خولة أخت سيف الدّولة، وأنّه لم يدّعي النبوّة، وأنّه كُذبَ عليه كثيراً، إلى غيره من الوقائع الّتي غيّرت تماماً تصوّر الأدباء عن حياة أبي الطيّب المتنبّي.

قال الأستاذ "محمود" شاكر :"فكان أوّل عمل طبَّقتُ فيه منهجي في "تذوّق الكلام" شعراً ونثراً، وأخباراً تروى، وعلماً يُكتب أو يستخرج، هو كتابي "المتنبّي" الّذي تولّت نشره مجلّة المقتطف سنة 1936م."[14]

بعد أن نشر الأستاذ "محمود شاكر" كتابه "المتنبّي" ظهرت طريقته الخاصّة في الكتابة ودراسته هذه الشخصيّة، الّتي تمالأ الأدباء على ذكر أخبار تلقّوها بالتسليم، جعلوها أساساً لتصوّر حياة "المتنبّي" الشاعر والثائر

والسياسي، فكان منهج الأستاذ "محمود شاكر "في تذوّق الكلام روايةً وعلماً، صدمةً في الساحة الأدبية، حيث اعتمد منهجاً في دراسة الروايات الّتي اعتمد عليها الأدباء قديماً وحديثاً في الترجمة "للمتنبّي"، وفي قراءة الشّعر والاستنباط منه حقائق عن الشّاعر نفسه، فكانت نتيجة هذا المنهج أن حكم الأستاذ "شاكر "بضعف الكثير من هذه الروايات، ثمّ تذوّق شعر "المتنبّي" فاستخرج منه حقائق إمّا يقينيّة أو احتمالات قويّة لا يجوز تجاهلها، فكانت صورة "المتنبّي" الّتي صوّرها الأستاذ "شاكر" غير تلك الّتي دأب الأدباء على ذكرها وحكايتها والتسليم بها وبصحّتها، فكانت نقلةً نوعيّةً وتجديداً علميّاً حقيقيّاً، لطريقة ومنهج دراسة الشخصيات العلميّة والتاريخ العربيّ الإسلاميّ. بين ذلك في قوله :"كان كتابي خالياً من كلّ إبانة عن هذا المنهج، أو إشارة إليه، فكان صدوره يومئذ مفاجأةً وجّهت أنظار الأدباء جميعاً في كلّ بلد ينطق اللّسان العربيّ، إلى إسم مجْهُول وكاتب مغمور، وأصبحتُ في خفقة كخفقة البرق إسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً ... كان السبب في هذه المفاجأة المثيرة، أنَّ جمهرة الأدباء والقارئين يومئذ، وقعوا على كتاب فيه ترجمة للمتنبّي مكتوب على منهج وجدوه فريداً متميّزاً، مبايناً مدَبُّهُ كلَّ المباينة، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة، والّتي كانت تغمرُ ساحة الأدب، ولا تزال تغمرها مع الأسف."[15]

ثانياً : قواعد إخراج التراث :

وظهر تطبيق منهجه أيضاً في تحقيق المخطوطات، ظهر جليّاً في تحقيقه لكتاب الطبقات لابن سلاّم الجمحيّ، حيث خالف الكثير من المحقيقين في تطبيق لقواعد هذا العلم، ممّا جعل الكثير من النقاد ينتقدون منهجه في التحقيق، وممّاَ أنكره المحققون على الأستاذ محمود شاكر حين طبّق منهجه أن

أنكروا عليه إضافته على أصل المخطوطة ما لم يكن فيها، فكان مذهبه أنّه إذا وجد في أحد كتب الأدب القديمة يروي صاحبه من الكتاب المدروس، أجاز لنفسه أن يضيف ذلك إلى الأصل ويشير في الهامش، ويتعامل معه على أنّه نسخة أخرى ناقصة، فقد زاد نصوصاً من الأغاني والموشّح وغيره إلى أصل مخطوطة الطبقات لابن سلاّم الجمحيّ، فكان من منهجه ضمّ المخطوطات بعضها إلى بعض وما روي من المخطوط في الكتب القديمة الأخرى المتفرّقة، والمقارنة بينها جميعاً في البرنامج أو جزء الدراسة، والتصريح بأنَّ هذا هو منهج علماء سلف الأمّة من كلّ التخصّصات، وأنَّ هذا كان دأبهم وأنَّ هذا من ضروريات علم الرواية ومقتضياتها، فقال:"**وقد ضمّنت هذا "البرنامج" ما يكشف حقيقة منهجي في دراسة الكتب العربية**، مطبَّقاً تطبيقاً صحيحاً في الكتاب الّذي قرأته وشرحتهُ ونشرتُهُ، وهو كتاب أبي عبد الله محمّد بن سلاّم الجمحيّ "طبقات فحول الشعراء"، و**لأوّل مرّة فسّرت حقيقة عملي في دراسة أسانيد الكتب الأدبية**، كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكالموشّح لأبي عبيد الله محمد ابن عمران المرزُبانيّ، **وهو أساس لكلّ دراسة لكتبنا الأدبية الّتي سارت على النهج الصحيح في إسناد الأخبار والآثار والأشعار**."[16]

وذكر شاكر أنّ سبب الانحراف في الدراسات الأكاديميّة في تحقيق الكتب العربية القديمة، هو تلك الأسس الّتي وضعت عليها، وأُسسُ التحقيق وضعها المستشرقون إذ هم أوّل من قاموا بنشر الكتب القديمة بالمطابع الحديثة، ثمّ تبعهم بعد ذلك العرب المسلمون، فكان لهم السبق في النشر بحكم السبق في التطوّر التقني للطبع، فقام المستشرقون بوضع قواعد ومناهج في التحقيق، إلتزمها من جاء بعدهم من عرب وعجم، وصارت مناهج وأُسس

مسلّمة كأنّها خالية من الخطأ ومن خالفها فقد أخطأ المنهج الصحيح، فالأستاذ محمود شاكر أصل منهجه في كلّ التخصّصات هو الرّجوع إلى علوم السلف من هذه الأمّة، وفهم التراث على أساسه وإخراجه على أساسه أيضاً وإلاّ خرج التراث مشوّهاً ومليئاً بالأخطاء، وقد مثّل لذلك بعدّة أمثلة[17].

وقواعد التحقيق عند الأستاذ محمود شاكر أو منهجه في التحقيق، هو منهج قائمٌ على العلوم الّتي أنتجتها الحضارة العربيّة الإسلامية، والّتي على أساسها قامت هذه الحضارة العظيمة، فإخراج التراث يكون على هذا الأساس، وتوضيح ذلك أنَّ العلوم العربيّة أو الكتب العربيّة حين خطّها أهلها كانت لهم تقاليد علميّة نشؤوا عليها، وعلوم احتكموا لها، فكان التأليف قائم على هذا الأساس، فكانت الكتب تروى وتتناقل وفق علم الرواية وتوثّق الكتب على أساسها، وتنسب إلى أصحابها على أساسها أيضاً، فتتناقل الكتب بالسند، وفضيلة السند خاصيّة تميّزت بها هذه الأمّة ليس للعجم يد ولا خبرة فيها، ومن أنواع الرواية أيضاً الكتابة والوجادة والإجازة، واختلاف النسخ ليس عيباً عندهم ما دامت النسخة مسندةً إلى صاحبها، فقد يزيد الكاتب في النسخ بعد مرور الزمن، وكانوا يوضّحون الزيادات إذا كانت من الراوي، وتشابه عناوين الكتب بين المؤلّفين أمر معروف لا إشكال فيه، إلى غيره ممّا ألفوه وعملوا به وفق علوم الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وأنّى للمستشرق الأعجميّ أن تتوفّر فيه هذه الخصائص وأن يدرك هذه القواعد، وهو أعجميّ لا ينتمي إلى هذه الأمّة ولا يعرف عنها إلاّ القليل، فقواعد التحقيق الصادر عنه هي قواعد لعلّها تفيد العجم وثقافتهم وكتبهم القديمة أمّا قواعد التحقيق عند العرب فلا تستنبط إلى من العلوم العربيّة على إختلافها وكلّ العلوم الّتي نشأت على أساسها

الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ونصّ على ذلك بقوله :"**ولم أتّبع في عملي في كتاب الطبقات وغيره من الكتب إلاَّ منهجاً آخر يخالف "المنهج العلميّ" كلّ المخالفة**، في جذوره وفروعه، وكذلك نبذت أيضاً مستنكفاً لفظ "حقّق، وتحقيق، ومحقّق"، وما يخرج منها نبذاً بعيداً دَبرَ أُذُني، لما فيه من التبجّح والتعالي والإدّعاء، واقتصرت على "قرأ" لأنَّ عملي في كلّ كتاب لا يزيد على هذا : **أن أقرأ الكتاب قراءةً صحيحةً**، وكلُّ ما أُعلّق به عليه، فهو شرحٌ لغامضه، أو دلالةٌ للقارئ من بعدي على ما يعينه على فهم الكلام المقروء والإطمئنان إلى صحّة قراءته وصحّة معناه، لا أكثر ولا أقل إن شاء الله، فكان لزاماً على الدكتور عليّ وأمثاله أن يضعوني حيث وضعت نفسي، إنّما أنا قارئ أو شارح، أو دليل ليس غيرُ، لست "محقّقاً"، إنّما المحقّق من يقول في "د" :"قال، وفي نسخة "ع" :"نال"، وفي نسخة "م" :"فال"، وهلمَّ جرّاً."[18]

من هذا النصّ يدرك القارء مدى إستبعاد كون قواعد التحقيق الأكاديميّة قواعد سليمةعند شاكر، ومدى تهكّم الأستاذ محمود شاكر على مصطلحاتها ومنهجها.

رابعا : قواعد المعيارية الأخلاقية عند محمود شاكر:

وشرط توفّر الأصل الاخلاقي لا يجادل فيه أحدق، فالنزاهة مطلوبة في كلّ قضية مدروسة، وهذا أمر عامٌّ لكلّ الأمم، ومصدر هذه الأخلاق الحميدة يكون في المعظم الدّين أو الإيديولوجية أي إيديولوجية كانت، فالدين هو الّذي إعتنى بتهذيب النفس من كلّ سوء ودعوتها إلى كلّ فضيلة.

قال شاكر :"وإغفال هذا الأصل الأخلاقي من قبل نازل هذا الميدان، أو من قبل المتلقي عنه، يجعل قضية المنهج وما قبل المنهج، فوضى مبعثرةً لا يتبيّن فيها حقٌّ من باطل."[19]

كما أنّ هذا الأصل الأخلاقي العاصم من الزلل، إنّما مصدره الثقافة والمقصود منها عامل الدّين بمعناه العام، فكما بيّنا سابقاً من كلام الأستاذ محمود شاكر أنَّ الدّين أحد أجزاء مكوّنات الثقافة، بل هو أحد أهمّ المكونات، فمدى تشرُّب الباحث للقيم، يكون توقُّد الأصل الأخلاقي فيه، وهذا في كلّ أمّة من الأمم، لا يخصُّ أمّةً بعينها.

قال شاكر مبيّناً وظيفة الدّين وأنّه مكوّن أساسيّ للثقافة وأنّه مصدر الأصل الأخلاقي :"ورأس كلّ ثقافة هو الدين بمعناه العام، والّذي هو فطرة الإنسان، أيّ دين كان، أو ما كان في معنى الدين، وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جُمُوح النفس الإنسانية ويحجزُها عن أن تزيغ عن الفطرة السويّة العادلة وبقدر تغلغله إلى أغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة، ومريداً لهذا الضبط، بقدر هذا الشمول وهذا التغلغل في بنيان الإنسان، تكون قوّة العَواصم التي تعصم صاحبها من كلّ عيب قادح من مسيرة ماقبل المنهج ثمّ في مسيرة المنهج."[20]

لقد ذكر محمود شاكر في كثير من أبحاثه كتباً ومقالات أنَّ للأخلاق مصادر في كلّ أمّة، وهذه المصادر متمازجة فيما بينها، لا ينفكّ أحدها عن الآخر، ولعلّها هي مقوّمات شخصية الباحث، ويمكن اعتبارها تلك الشروط الّتي يجب أن تتوفّر في الباحث، فهي من جهة شروط الباحث ومن جهة أخرى مصادر للأخلاق، وعلى رأسها : الدين، أو الإيديولوجية أيَّ إيديولوجية كانت، وثقافة

المجتمع الّذي يعيش فيه، الثقافة المتكوّنة أصلاً من دين الأمّة ولغتها وعادات مجتمعها، وبالتالي يمكن حصر مصادر الأخلاق فيما يلي :

1. الدين :

بتعريف الدين سيظهر مدى تأثيره على الأشخاص المتدينين، فمعرفة كنهه يساعد على فهم الدين بشكل عميق ودقيق، يتبيّن من خلالها للقارئ مدَى إلزام الدين أصحابه بتعاليمه

تعريف الدين لغة :

عرّفه صاحب لسان العرب بعدّة معاني منها "الحكم القاضي" و "القهّار" و "لجزاء والمكافأة" و "الجساب" و "الطاعة" و "العادة والشأن" و "الذلُّ" و "السلطان"[21]

كما عرفه صاحب الصحاح بالمعاني ا آتية : "العادة والشأن" و "الذلُّ" و "الجزاء والحساب" و "الطاعة"[22]

وجمع المعاني اللغوية لمادة "دين" صاحب القاموس في قوله :"والدين بالكسر الجزاء والذلُّ، والداء والحساب والقهر والغلبة والإستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد، وإسم لكلّ ما يتعبّد الله عزّ وجلَّ به، والملّة والورع والمعصية والإكراه"[23].

وبعد التحليل لعدّت تعريفات اختار الدكتور عبد الله درّاز التعريف التالي :قال :"الدين هو الإعتقاد بوجود ذات –أو ذوات- غيبية علوية لها شعور واختيار، ولها تصرّف وتدبير للشؤون الّتي تعنى الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد، وبعبارة موجزة هو :"الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة" هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التديّن، أمّا إذا نظرنا إليه من حيث

هو حقيقة خارجة فنقول :"هو جملة النواميس النظرية الّتي نحدّد صفات تلك القوّة الإلهية، وجملة القواعد الّتي ترسم طريق عبادتها."[24]

وقال شاكر مبيّنا معنى الدين :"استظهرت أنّ المعنى الأوّل للفظ "الدين" أنّه الحال الّتي يخضع لها الإنسان خضوعاً طارئاً أو مستمرّاً مريداً أو غير مريد، فإذا ألف المرء تلك الحال ودرب عليها، ولزمها مرّةً بعد مرّة، خرج إلى معنى "العادة" الّتي لا يكاد المرء يفارقها، بل يأتيها كالمقسور عليها، ثمّ جاءت المعاني تتراكم على لفظ "الدين" فداخله معنى القسر والقهر من ذي سلطان لا يملك المرء خلافه، ثمّ لحق بهذا الخضوع لذي السلطان بإرادة أو بلا إرادة، خضوعاً ظاهراً أو باطناً، ثمّ أدرك ذلك معنى الغلبة من ذي السلطان على من يخضع له، حيث يكون الخضوع له عادةً دائمةً لا يكاد المرء يفكّر في الخروج عليها، فإنَّ ذلك قد جمع إلى معناها معنى الطاعة ممن خضع للسلطان، ثمّ دخل على معنى الغلبة من الغالب، والطاعة من المطيع، معنى جديد مؤسّس على هذه المعاني المتراكبة، فإن صاحب السلطان يحاسب المطيع على طاعته، والعاصي على عصيانه، ويكافئ المطيع ويعاقب العاصي، فصار معنى الدين إلى الحساب والمجازاة على الأعمال الّتي يعملها كلّ منهم، مما يرضي عليه ذو السلطان أو يسخطه."[25].

وقال جامعاً لحدود مصطلح الدين فقال :"وقد انتهى معنى الدين إلى معنى الخضوع لمعبود معظّم لا يملك المرءُ خلافه ولا معصيته، ولكن لما كان الخضوع لمعبود معظّم قد احتاج إلى رسوم من العبادات والتكاليف، وإلى أصول من العقائد في المعبود، وإلى عقائد في نشأة هؤلاء العابدين ومكانهم من معبودهم، وإلى ما ينالهم إذا أطاعوه، وما يصيبهم عند معصيته، وإلى شيء كثير من التفاصيل في هذه العبادة، صار جميع ذلك ديناً ... فكلّ من خضع لهذا المعبود وما توجبه عليه عبادته من تكاليف :في العمل وفي الإيمان وفي سائر العقائد المتعلّقة بمعبوده يفهم معنى الدين مركّباً من كلّ ذلك."[26].

ممَّـا سـبق يظهـر أنَّ الـدين لـه خصـائص أو عناصـر هـي : معنى المعبـود، و الخضـوع، والجـزاء للمطيـع والعاصـي، وهـذه كلّهـا عناصـر تفيـد في مـدَى تـأثير الدين في المتدينين، ومدى الانقياد له.

2. اللغة:

التعريف اللغوي :

قـال الجـوهري في كتابـه الصحاح :"لغـا يلغـوا لغـواً أي قـال بـاطلاً ... واللغـا : الصوتُ ... واللغة أصلها لغيٌّ أو لغو... "[27]

وقال الفيروز أبادي :"واللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم ... ولغا لغواً تكلّم."[28]

وقـال ابـن منظـور :"واللغـة اللسـنُ وحـدّها أنّهـا أصـواتٌ يعبّر بهـا كلُّ قـوم عـن أغراضهم، وهي فعلةٌ من لغوةُ أي تكلّمةُ."[29]

فشـرط نزولـه الميـدان أن يكـون محيطـاً بأسـرارها الظـاهرة والباطنـة باللّغة، وبين تمام الإحاطة بها وقصور هذه الإحاطة، يرتفع قدر ما يكتبه أو ينزل إلى حضيض الإسقاط والإهمال، قال الأستاذ محمود شاكر :"فمن طريق اللّغة التي نشـأ فيها صغيراً، فإنّهُ يسـدّده أو يتهـدَّدُهُ، الإحاطةُ بأسـرار اللّغـة وأسـاليبها الظاهرة والباطنة، وعجائب تصاريفها الّتي تجمّعت وتشابكت على مرّ القرون البعيـدة، فصـارت ألفاظهـا وتراكيبهـا الموروثـة والمسـتحدثة تحملُ مـن كلّ زمـان مضىَ وكلّ جيل سبق، نفحـةً من نفحـات البيان الإنسـانيّ، بخصائصه المعقّدة المكتّمة، أو خصائصه السمحة والمستعلنة، وبين تمام الإحاطة باللّغة وقصور الإحاطة بها، مزالق تـزلُّ عليها الأقـدام، ومخـاطرُ يخشى معهـا أن تنقلـب وجـوه المعـاني مشـوّهة الخلقـة مسـتنكرة المَـرْآة، بقـدر بُعـدها عـن الأسـرار الخفيّـة المستكنّة في هذه الألفاظ والتراكيب، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاج إلى بيان."[30].

ويتعجّب الأستاذ محمود شاكر من الأعجميّ كيف يحسن تطبيق المنهج وما قبل المنهج في تراث أمّة غير أمّته، لها لغةٌ غير لغته الّتي نشأ عليها، وكيف يكون عالماً بثقافتها وهو لا يدرك لغتها أو أسرار هذه اللغة، فقال:"كيف يجوز في عقل عاقل أن تكون بضع سنوات قلائل كافيةً لطالب غريب عن اللّغة وهذه حاله، أن يُصبح محيطاً بأسرار اللّغة وأساليبها الظاهرة والباطنة، وبعجائب تصاريفها الّتي تجمّعت وتداخلت على مرّ القرون البعيدة في آدابها، وأن يُصبح بين عشيّة وضُحاها مؤهّلاً للنزول في ميدان المنهج وما قبل المنهج ؟ كيف ؟ مع أنَّ هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكاثرة من أبناء هذه اللّغة أنفسهم، ولا يبلغُ إلاّ القليلُ منهم ؟ كيف يجوز هذا في عقل عاقل ؟ هذا مع انّهُ أيضاً تعلَّمهاَ تلقّياً من أعجميّ مثله، ولم يخالط أهلها مخالطةً طويلةً متمادية تتيح له التلقّي عنهم، تلقّياً يبصّره ببعض هذه الأسرار، غَاية ما يمكن أن يحوزهُ مستشرق في عشرين أو ثلاثين سنةً وهو مقيمٌ بين أهل لسانه الّذي يقرعُ سمعهُ باللّيل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً مَّا بهذه اللّغة، وأحسن أحواله عندئذ أن يكون في منزلة طالب عربيّ في الرابعة عشرة من عمره، بل هو أقلّ منه على الأرجح، أي هو في طبقة العوامّ الّذين لا يعتدُّ بأقوالهم أحدٌ من ميدان المنهج وما قبل المنهج."[31].

ولمّا كانت الثقافة والدين واللّغة متمازجة متجانسة، فلابدّ من شرط اللغة لمعرفة الثقافة والدين وتمكّنهما من الباحث.

3. الثقافة :

التعريف اللغوي :

قال صاحب القاموس :"ثقُفَ ثقفاً وثَقَفاً وثقافةً، صار حاذقاً خفيفاً فطناً، فهو ثقفٌ."[32] وذكر نفس الكلام الجوهري في الصحاح[33].

وأمّا ابن منظور فقد أضاف بعض المعاني لمادة "ثقف" في قوله :"ورجلٌ ثقفٌ وثَقفٌ وثَقُفٌ حاذقٌ فهمٌ ... ويقال ثقفَ الشيء وهو سرعة التعلّم ... وفي حديث الهجرة : وهو غلامٌ لقنٌ ثقفٌ أي ذو فطنة وذكاء والمراد أنّه ثابت المعرفة بما يُحتاج إليه."[34]

ذكر الأستاذ شاكر معنى الثقافة بشكل شامل وموجز، من غير تفصيل و كثير بيان في النصّ التالي: قال الأستاذ محمود شاكر :"تكاد تكون سرًّا من الأسرار الملثّمة في كلّ أمّة من الأمم، وفي كلّ جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارفُ كثيرة لا تحصى، متنوّعةٌ أبلغ التنوّع، لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كلّ مجتمع إنسانيّ للإيمان بها أوّلاً عن طريق العقل والقلب، ثمّ للعمل بها حتّى تذوب في بنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدَّم لا يكاد يحسُّ به ثمّ للانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكّك والإنهيار، وتحوطهُ ويحُوطها حتّى لا يفضي إلى مفاوز الضَّياع والهلاك، وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار الثقافة وقصور هذا الإدراك، منازلُ تلتبسُ فيها الأمور وتختلط، ومسالكُ تضلُّ فيها العقول والأوهام حتّى ترتكس في حمأة الحيرة، بقدر بُعدها عن لباب هذه الثقافة وحقائقها العميقة البعيدة المتشبّعة ... وكن أبداً على حذر فإنّهُ ممكن كلَّ الإمكان أن يدبَّ إليك منه دبيباً خفيّاً، مكر الماكر وعبث العابث، واحتيال المحتال."[35].

من هذا النص يتضح أنّ مفهوم المنهج عن شاكر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى الثقافة، وذلك ما بينه الباحث "عمر حسن القيام" في قوله :"يرتبط مفهوم

المنهج عند شاكر ارتباطاً وثيقاً بمفهومه للثقافة، إذ يؤمن إيماناً عميقاً بخصوصية الثقافة، من خلال معايير محدّدة، تشكّل لكلّ أمّة ملامح ثقافتها، ويرفض بقوّة مفهوم الثقافة العالمية."[36]

كما أنَّ تأثير الثقافة كان واضحاً حتّى على الأستاذ شاكر في تصوّره للمنهج الصحيح، قال عمر حسن القيام :"كان لهذا الوعي النظريّ بالثقافة والتجديد، أكبر الأثر في تشكيل وعي شاكر بالمنهج، فقد حدّد أُطُر حركته تحديداً كاملاً داخل الثقافة العربية."[37]

أمّا الثقافة ومدَى تأثيرها على الباحث والفرد عموماً، يجب أن يدرك حقيقتها وأن يتشرّبها وتتمكّن منه كلّياً،لذا ذكر شاكر أنَّ للثقافة أركان يجب أن تتوفّر في الفرد حتّى نقول أنّه ينتمي إلى تلك الثقافة، وهذه ا أركان هي : الإيمان والعمل والإنتماء. فإذا توفّرت هذه الأركان يمكن أن نقول أنّها ثقافة أمّة، ويمكن أن نقول أنّها الثقافة الّتي يجب أن ينشأ عليها الباحث حتّى تزوّده بالأخلاق والقيم حتّى يكون نزيهاً في البحث وتكسبه الموضوعية والأهلية لذلك.

أولاً : أركان الثقافة : الإيمان والعمل والانتماء :

لقد بيّن الأستاذ محمود شاكر أنَّ الثقافة واللّغة متداخلان أيّما تداخل، فلا يكون الأوّل إلاَّ بالثاني ولا الثاني إلاَّ بالأوّل، فكذلك لمّا حلّل معنى الثقافة استنبط لها ثلاثة ركائز ولا تكون هناك ثقافة حقيقيّة إلاّ إذا توفّرت على هذه الأركان الثلاثة، وإلاّ كانت أفكار تحكى وكلمات تتردّد على مسامع الناس والأفراد، ليست ثقافةً متكاملةً متماسكة متجانسة، قال الأستاذ محمود شاكر :"إذا كان أمر اللّغة شديداً لا يسمح بدخول المستشرق تحت هذا الشّرط اللاّزم للقلّة التي تنزل ميدان المنهج، وما قبل المنهج، فإنَّ شرط الثقافة أشدُّ وأعتى لأنّ

الثقافة سرٌّ من الأسرار الملثّمة في كلّ أمّة من الأمم وفي كلّ جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تحصى، متنوّعة أبلغ التنوّع، لا يكاد يُحاط بها، مطلوبة في كلّ مجتمع إنسانيّ، للإيمان بها أوّلاً من طريق العقل والقلب ثمّ العمل بها حتّى تذوب في بنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدّم لا يكاد يحسُّ به، ثمّ الانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظهُ ويحفظها من التفكّك والانهيار،وهذه القيود الثلاثة "الإيمان" و"العمل" و"الانتماء" هي أعمدة الثقافة وأركانها الّتي لا يكون لها وجود ظاهر محقّقٌ إلاَّ بها، وإلاَّ انقضَّ بنيان الثقافة، وصارت مجرّد معلومات ومعارف، وأقوال مطروحة في الطريق، متفكّكة لا يجمع بينها جامع، ولا يقوم لها تماسك ولا ترابط ولا تشابك."[38].

ثانياً : علاقة الثقافة باللّغة وبالدين :

علاقة الثقافة باللّغة علاقة تلازم لا تنفكُّ، فلأجل الإطّلاع على ثقافة أمّة من الأمم يجب أن تكون ملمّا بلغتها متقناً لها، ومن أجل إتقان اللّغة ومعرفتها حقّ المعرفة، يجب الإطلاع الشامل على ثقافة أهل هذه اللّغة، فهي مؤثّرةٌ تأثيراً ضرورياً على معاني الكلمات والجمل، لتحديد مقاصد المتكلّم ومراده، فعلى هذا الأساس لا يمكن الفصل بين الثقافة واللّغة إطلاقاً.

يوضّح الأستاذ محمود شاكر مدى تلازم اللّغة والثقافة، وكيف يتلقّاها الإنسان وكيف يتشرّبها ويؤمن بها، قال رحمه الله :"هذا على أنّ اللغة نفسها هي وعاء الثقافة فهما متداخلان فمحالٌ أن يكون محيطاً بأسرارها، دون أن يكون محيطاً أيضاً بثقافتها إحاطةً تؤهّلهُ للتمكّن من اللّغة."[39]، فقال مبيّناً :"وذلك لأنَّ الثقافة واللّغة متداخلتان تداخلاً لا إنفكاك له، ويترافدان ويتلاحقان بأسلوب خفيّ غامض كثير المداخل والمخارج والمسارب، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابل للفصل، في كلّ جيل من البشر وفي كلّ أمّة من الأمم، ويبدأ هذا التداخل والترادف والتلاقُح والتمازج منذ ساعة يولد الوليد صارخاً يتلمّسُ ثدي أمّه تلمُّساً، ويسمع رجع أصواتها وهي تهدهد وتناغيه، ثمَّ يظلُّ يرتضع لبان اللّغة الأوّل ولبان الثقافة الأوّل ، شيئاً فشيئاً، عن أمّه وأبيه حتّى يعقل، فإذا عقل تولاّهُ معهما المعلّمون والمؤدّبون حتّى يستحصد، أي يشتدَّ عودهُ، فإذا استحصد وصار مطيقاً إطاقةً مَّا للصبر بمواضع الصواب والخطأ، قادراً قدرةً مَّا على فحص الأدلّة واستنباطها فناظر وباحث وجادل، فعندئذ يكون قد وضع قدمهُ على أوّل الطريق لا طريق المنهج وما قبل المنهج، فهذا بعيدٌ جدًّا كما رأيت بل على الطريق المفضي إلى أن تكون له ثقافة يؤمن بها عن طريق العقل والقلب ويعمل بها حتّى تذوب في بنيانه وتجري منه مجرى الدّم لا يحسُّ به وينتمي إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار، كما أسلفتُ، وهذا كما ترَى شرطٌ لازمٌ للبدء في الإحاطة بأسرار اللّغة، ثمّ اللّغة بعد ذلك هي الّتي تمهّد له الطريق إلى الإحاطة بأسرار الثقافة لأنّ أمر الإحاطة عندئذ منوطٌ كلّهُ بالقدرة على تمحيص مفردات اللّغة تمحيصاً دقيقاً، وتحليل تراكيبها وأجزاء تراكيبها بدقّة متناهية، وبمهارة وحذق وحذر، حتّى يرى ما هو زيفٌ جليًّا واضحاً، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً، بلا غفلة ولا هوى ولا تسرّع، ثمّ منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر في الثقافة وعلى ترتيب مادّتها بعد نفي زيفها وتمحيص جيّدها باستيعاب لكلّ احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرّع ... "[40]، وأمّا علاقتها بالدين، فالأستاذ محمود شاكر يرى أنَّ الدين بمعناه العام هو أساس كلّ ثقافة، فالدين مؤثر في المجتمع والفرد، من حيث التحكّم في سلوكياته وتفكيره، هذا بشكل عام، فإذا كان الدين يدعوا إلى تحكيم العقل

ونشـر الفضيلة كان سـبباً في دفـع الباحـث إلى التحلّي بالموضـوعيّة في البحـث، فبقـدر صحّة هـذا الـدين وكثرة مبادئه الأخلاقيـة، يكون السـبب في نسـج ثقافـة متكاملة منسجمة مع الأصل الأخلاقي الّذي سنذكره أنّه من أهم شـروط الباحث المطبّـق للمـنهج العلميّ، قـال شـاكر مبيّنـاً وظيفـة الـدّين وأنّـه مكـوّن أساسـيّ للثقافة وأنّه مصدر الأصل الأخلاقي :"ورأس كلّ ثقافة هـو الـدين بمعناه العـام، والّذي هو فطرة الإنسان، أيّ دين كان، أو ما كان في معنى الدين، وبقدر شـمول هـذا الـدين لجميـع ما يكبح جُمُـوح الـنفس الإنسـانية ويحجزُها عـن أن تزيـغ عـن الفطرة السـويّة العادلـة وبقـدر تغلغلـه إلى أغـوار الـنفس تغلغلاً يجعـل صـاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة، ومريداً لهذا الضبط، بقدر هذا الشـمول وهـذا التغلغل في بنيان الإنسان، تكون قوّة العَواصم التي تعصم صاحبها من كلّ عيب قادح من مسيرة ماقبل المنهج ثمّ في مسيرة المنهج."[41]

وجملـة القـول على ما تـمّ بيانـه فـإنّ شـاكر يـرى أنَّ الـدين والثقافـة واللغـة بينهم تـلازم لا ينفـكّ عـادةً، وتمـازج لا بـدّ منـه في تكـوين الشـخصـية العلميـة وتحديـد المسار المعرفي والمنهجي لها،

خامسا. تحليل النتائج:

ومن تحليل كلام الأسـتاذ محمـود شـاكر، يتبيّن جليّاً أنَّ الأسـتاذ محمـود شـاكر يجعـل العـائق الكبير أو الأسـاسـي، هـو العـائق النفسـي في النـازل ميـدان المنهج، إذ تصفية النفس من كلّ ما يجعلها غير متجرّدةً في البحث ومتحيّزةً، غير موضـوعية وذاتيـة، هـو العـائق الكبير الّـذي يـؤدّي إلى الانحـراف بالبحـث عـن الموضوعية، وهذا الأصل عبّر عنه بأنّه الأصل الأخلاقيّ، الّذي به يقاوم الباحث عنصر الأهـواء، ويظهر ذلك في تصـريحه :"وأمّا الأهـواء فهي الـداء المبير، والشـرُّ المسـتطير والفسـاد الأكبر، إنْ هـو ألـمَّ بأيّ عمل إلمامةً خفيّة الـدبيب بلـه الـوطءَ

المتثاقل، أحالهُ إلى عمل مستَقذَر منبوذ كريه، حتّى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه وحليّه وعطوره وأتمّها زينةً، من دقّة واستيعاب وتمحيص ومَهارة وحذق وذكاء، ثمّ بشاعةً إذ كان الكاتب ملمّاً تمام الإلمام بأسرار اللّغة والثقافة، لأنّه حينئذ منافق خبيث النّفاق، وخائنٌ لئيمُ الخيانة."[42]

وأنَّ هذا الأصل الأخلاقي مصدره الدين واللغة والثقافة، لذا لا يمكن أبداً لغير متأثّر بما ذكرنا أن تتوفّر فيه النزاهة في البحث، والموضوعية، والعلم بالمؤثّرات الموجودة في كلّ مجتمع وكلّ أمّة المساعدة على فهم تاريخها وعلومها وتراثها.

الخاتمة:

لقد أسفر هذا البحث عن نتائج أهمّها :

1 نشأة الشيخ في أسرة علمية عريقة وأصول شريفة، وتكوينه العلمي الشرعي والأدبي العربي الإسلامي، كان له الأثر الكبير والبالغ على تكوين شخصيته العلمية، وتعامله مع الساحة الفكرية و ما تحويه من مناهج علمية، فرفض رفضاً صريحاً غير متلجلج المناهج الغربية، الّتي حاول أصحابها دراسة التراث العربي الإسلامي، وفق منهجهم، فأوّل ما بدأ به بحوثه، قام ببيان المنهج العربي الإسلامي، وعلى أيّ أساس قام ونشأ، ثمّ بيّن أنّ هذا المنهج العربي الإسلامي مطبّق في كلّ العلوم العربية الإسلامية، من علم لتاريخ وعلوم الدين، والعربية، إلى غيرها من العلوم الّتي اشتغل عليها العرب، وخلص إلى وجوب تحكيم هذا المنهج لفهم التراث العربي الإسلامي.

2 البحث العلمي عند الأستاذ محمود شاكر يتكوّن من ثلاثة مراحل وهي : ما قبل المنهج و ما بعد المنهج و مرحلة التطبيق، وعمل على تطبيقه في كلّ أبحاثه من دون استثناء، فقام بجمع المادّة، ثمّ ترتيبها ترتيباً تاريخيا متسلسلاً، ثمّ قام بنقدها ونخلها، لنفي زائفها، ثمّ إعادة ترتيبها بعد تحليلها وفق نتائج النقد، لأجل الوصول إلى الحقيقة أو الاقتراب منها.

3 يـرى محمـود شـاكر أنّ هنـاك مـؤثّرات على مـن يطبـق المـنهج، مـن أهـمّ هـذه المؤثّرات هو الأصل الأخلاقي، توفّره من عدمه.

4 مصـادر الأصـل الأخلاقي عنـد المفكـر محمـود شـاكر، هي : الـدين واللغـة و الثقافة، ويراها ضرورية للباحث، حتّى يتمكن من دراسة مجتمعه دراسة نزيهة وموضوعية.

5 أنَّ هـذه المصـادر متمازجـة متلاحمـة، بينهـا تـلازمٌ لا ينفـكُّ، ممـا يـدل على أنّ الباحـث الأعجمي الّـذي تعلّم لغـة أمّة من الأمم، لا يمكـن أن يـدرس مجتمعهـا وعلومهـا دراسـة نزيهـة ودقيقـة، والسـبب راجـعٌ إلى أنّـه غريـبٌ عنهـا، فهـو جاهـلٌ بثقافتهـا وينتمي إلى ديـن غير دينهـا، فقـد يخفى عليـه الكثير مـن أسـرار هـذا المجتمـع وهـذه الأمّـة، فيكـون بـذلك فاقـد للأهليـة لدراسـة تراثهـا وعلومهـا وأنّـه معرّضٌ أكثر من غيره إلى الذاتية والزلل.

6 وأخيراً فـإنَّ الباحـث الّـذي يملـك المـؤهّلات الّتي توصلـه إلى كشـف الحقيقـة، وإيصال الصـورة صحيحة غير مشـوّهة، من كان متمكّناً من لسـان أمّته متشـرّباً لثقافتهـا متـأثّراً بـدينها بحيـث يكـون الأصـل الأخلاقي متمكّنـاً مـن وجدانـه وقلبـه وعقلـه، ويكـون انتمـاؤه انتمـاءً حقيقيـا لتلـك الأمّـة، فيكـون أعـرف النـاس بهـا وبمناهجها العلمية، وأسـرار مجتمعاتها، هـذا هـو الباحـث الّـذي يمكـن أن يكـون قريـب من الموضـوعية وتطبيق المنهج الصحيح، بحسـب تحليل الأسـتاذ محمـود شاكر.

---

[1]ولـد الأسـتاذ محمود شـاكر في الإسـكندرية السـاعة السـادسـة العربيـة من ليلـة عاشـوراء الإثنين عاشـر محرم سـنة 1327 للهجرة، الموافق للسـاعة الثانية عشـر إفرنجية أول فبراير سـنة 1909 ميلاديـة، انتقل إلى القـاهرة في صيـف عـام 1909م بتعيين والـده وكيلا للجـامع الأزهـر (1909م-1913م) وكان قبل ذلك شـيخا لعلمـاء الإسـكندرية صـرّح الأسـتاذ محمـود

شاكر بأنَّهم من أشراف الصعيد حيث ينتهي نسبهم إلى عليّ رضي الله عنه فهو محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر، من أسرة أبي علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، تلقى أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة 1916م، وبعد ثورة سنة 1919م انتقل إلى مدرسة القربية بدرب الجمازير وفي سنة 1921م دخل المدرسة الخديوية الثانوية،مع بداية عام 1922م قرأ على الشيخ سيد بن على المرصفي صاحب "رغبة الآمل" فحضر دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه في بيته: الكامل للمبرد، وحماسة أبي تمام، وشيئا من الأمالي للقالي، وبعض أشعار الهذليين، واستمرت صلته بالشيخ المرصفي إلى أن توفي رحمه الله سنة 1349هـ-1931م، حصل على شهادة البكالوريا (القسم العلمي) عام 1925م، وفي سنة 1926م التحق بكلية الآداب الجامعة المصرية قسم اللغة العربية واستمر بها إلى السنة الثانية حيث نشب خلاف شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي، كما بينه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب "المتنبي"، وترتب على ذلك تركه الدراسات الجامعية. ينظر : د عادل سُليمان جمال ، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط : 2 – 2013م، ج2 ص1011. مجموعة من الباحثين، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، مطبعة المدني، القاهرة ، دط، (1403هـ 1982م)، ص1.

[2] عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلميّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط : 3، 1988م، ص 158.

[3] عبد الرحمان بدوي ، مناهج البحث العلميّ، ص3.

[4] فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعيّة "محاولةٌ في التأصيل المنهجي"، دار السلام، مصر، ط :2، 1431هـ 2010م، ص29.

[5]محمد محمو شاكر، أباطيل وأسمار، ص24.

[6]محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق لثقافتنا، ص22.

[7] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مطبعة المدني، القاهرة، دط، 1407هـ/1987م، ص 21.

[8] 13

[9] محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ت: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دط، ج1 ص 114.

[10] محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ت: محمود شاكر، ج1 ص 12.

[11] محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ت: محمود شاكر، ج1 ص 12.

[12] محمود محمد شاكر، المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة، دط، 1407هـ/1987/، ص 25. وينظر : محمد ابن سلاَّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ت: محمد محمود شاكر، ج1 ص117.

[13] محمود محمد شاكر، المتنبي، ص 17.

[14] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 16.

[15] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 17.

[16] محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء،ت: محمود شاكر، ج1 ص 11.

[17] ينظر : برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ت:محمد حمدي البكري، دار المريخ للنشر، الرياض، دط، 1402هـ/1982م، ص20. وَ ينظر : عبد المجيد دياب، تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، دار المعارف، القاهرة، دط، وَ ينظر : ، عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:7، 1418هـ/1998م. وينظر : رمضان عبد التواب، مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط :1 1406هـ/1985م.

[18] –محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1 ص 157.

[19] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 31.

[20] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 31.

[21] ابن منظور، لسان العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، ج5 ص340.

[22] الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، دط، 1430هـ/2009م، ص397.

[23] فيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الغد الجديد، القاهرة، د1، 1435هـ/2014م، ص561.

[24] عبد الله دراز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار لقلم، بيروت، دط، ص52.

[25] محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص 534.

[26]محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص 536.

[27] الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ص1039.

[28] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص1413.

[29] ابن منظور، لسان العرب، ج13 ص214.

[30]محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 27.

[31] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 67.

[32] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص219.

[33] الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ص148.

[34] ابن منظور، لسان العرب، ج3 ص28.

[35] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 28.

[36] عمر حسن القيام، محمود محمد شاكر الرجل والمنهج، دار البشير، عمان، ط1، 1417هـ/1997م، ص104.

[37] عمر خسن القيام، محمود محمد شاكر الرجل والمنهج، ص108.

[38] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص 68.

[39]محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص 68.

[40]محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص 69.

[41] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص 31.

[42] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص66.

قائمة المصادروالمراجع :

1 أسامة أحمد شاكر، من أعلام العصر الشيخ محمد شاكر، أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م.

2 برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ت:محمد حمدي البكري، دار المريخ للنشر، الرياض، دط، 1402هـ/1982م.

3ابن منظور، لسان العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط.

4الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، دط، 1430هـ/2009م.

5 خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

6 رمضـان عبـد التـواب، منـاهج تحقيـق التراث بـين القـدامى والمحـدثين، مكتبـة الخـانجي، القاهرة، ط :1 1406هـ/1985م.

7 عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلميّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط : 3، 1988م.

8 عبـد السـلام هـارون، تحقيـق النصـوص ونشـرها ، مكتبـة الخـانجي، القـاهرة، ط:7، 1418هـ/1998م.

9 عبد المجيد دياب، تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، دار المعارف، القاهرة، دط.

10 عبد الله دراز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار لقلم، بيروت، دط.

11 عـادل سُليمان جمال ، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط : 2 – 2013م.

12 عمـر حسـن القيـام، محمـود محمـد شـاكر الرجـل والمـنهج، دار البشـير، عمـان، ط1، 1417هـ/1997م.

12 فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعيّة "محاولةٌ في التأصيل المنهجي"، دار السلام، مصر، ط :2، 1431هـ 2010م.

13 فيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الغد الجديد، القاهرة، د1، 1435هـ/2014م

14 مجموعة من الباحثين، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمـود محمـد شـاكر بمناسـبة بلوغـه السـبعين، مطبعـة المدني، القـاهرة ، دط، (1403هـ 1982م).

15 محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ت: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دط.

16 محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، مطبعة المدني، مصر، ط:1، 1434هـ/2013م.

17 محمـود محمـد شـاكر، رسـالة في الطريـق إلى ثقافتنـا، مطبعـة المـدني، القـاهرة، دط، 1407هـ/1987م.

18 محمود محمد شاكر، المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة، دط، 1407هـ/1987/.